الكتاب الثاني

الثورة

١٤٥ – ٣٠ ق . م

Obeikandl.com

جدول للحوادث التاريخية

مرتبة حسب أزمانها

ق . م	
١٣٩ —	حرب الرقيق الأولى فى صقلية .
١٣٣ —	تعيين تيبيريوس جراكس تربيوناً واغتياله
١٣٢ وما بعدها —	لوسليوس پانيتيوس فى رومة .
١٢٤ — ١٢٣	كيوس جراكس تربيون .
١٢٢ —	كيوس جراكس يبدأ نظام توزيع الحبوب عن قبل الدولة .
١٢١ —	انتحار كيوس جراكس تربيون .
١١٩ —	ماريوس تربيون .
١١٦ —	ثم بريتور .
١١٣ — ١٠١	حروب رومة ضد السمبريين والتيوتون .
١١٢ — ١٠٥	الحرب اليجرثية .
١٠٧ ، ١٠٤ —	١٠٠ ، ٧٨ ماريوس قنصل .
١٠٦ —	مولد شيشرون وپمپى .
١٠٥ —	السمبريون يهزمون الرومان قرب أروسيو .
١٠٣ — ٩٩	حرب الرقيق الثانية فى صقلية .
١٠٣ — ١٠٠	سترنيوس تربيون .
١٠٢ —	ماريوس يهزم السمبريين عند أكواسكستيا .
١٠٠ —	ماريوس يقهر سترنيوس ؛ مولد يوليوس قيصر .
٩١ —	إصلاحات م . ليڤيودروسس واغتياله .
٩١ — ٨٩	الحرب الاجتماعية فى إيطاليا .
٨٨ —	صلا قنصل ؛ فرار ماريوس .
٨٨ — ٨٤	الحرب المثرداتية الأولى .
٨٧ —	تمرد سنا وماريوس ؟ حكم الإرهاب المتطرف .
٨٦ —	صلا يستولى على أثينة ويهزم أركيلاوس فى قيرونية .
٨٦ —	ماريوس وسنا يخلعان صلا ؛ موت ماريوس .
٨٥ — ٨٤	القنصليتان الثالثة والرابعة وموت سنا .
٨٣ — ٨١	الحرب المثرداتية الثانية .

ق . م

٨٣ — صلا ينزل فى برنديزيوم .

٨٢ — صلا يستولى على رومة . حكم الإرهاب الرجعى .

٨١ — القوانين الكرنيلية لصلا .

٨٠ — ٧٢ ثورة سرتوريوس فى أسبانيا .

٧٩ — استقالة صلا وموته فى عام ٧٨

٧٦ وما بعدها — ثرو .

٧٥ — ٦٣ الحرب المثرداتية الثالثة — انتصارات لوكس وبمبى .

٧٥ — شيشرون يعين كوستراتى صقلية .

٧٣ — ٧١ حرب الرقيق الثالثة : إسپارتكوس وبمپى .

٧٠ — كراسس وبمپى قنصلان للمرة الأولى . محاكمة ڤرس . مولد ڤرجيل .

٦٩ — تيتس پمپى نپومس أنكس .

٦٨ — قيصر كوستر فى أسبانيا .

٦٧ — پمپى يخضع القراصنة .

٦٦ — كتاب شيشرون **Pro lege manilia** .

٦٣ — شيشرون يفضح كتلين . مولد أكتاڤيوس .

٦٣ — ١٢ م . ق أجرپا .

٦٢ — قيصر پريتور مهندس . مسلك كلوديوس السيئ .

٦١ — قيصر حاكم فى أقاصى أسبانيا . عودة پمپى . وانتصاره .

٦٠ — الحكومة الثلاثية الأولى : قيصر وكراسس وپمپى .

٦٠ — ٥٤ قصائد كاتلس ؛ كورنليوس نيپوس .

٥٩ — قيصر قنصل .

٥٨ — كلوديوس تربيون يخرج شيشرن من البلاد ؛ قيصر يهزم هلفتى وأريوڤستس فى غالة .

٥٧ — عودة شيشرون ؛ قيصر يهزم بلجا .

٥٦ — التقاء أعضاء الحكومة فى لوكا .

٥٥ — پمپى وكراسس قنصلان ، ملهى پومپى ؛ قيصر فى ألمانيا وبريطانيا .

٥٤ — غزو قيصر لبريطانيا للمرة الثانية .

٥٣ — أعمال العنف التى قام بها كلوديوس وميلو فى رومة ، هزيمة كراسس فى كارهى .

٥٢ — مقتل كلوديوس ؛ محاكمة ميلو ؛ پمپى ينفرد بالقنصلية ؛ ثورة ڤرسنجتركس .

٥١ — شيشرون حاكم قليقية ؛ كتاب شيشرون **de re publica** ، كتاب كتاب قيصر **de bello Gallico**

رقم

٥٩ — قيصر يعبر الربكون ويستولى على روما .

٤٨ — معركتا دراكيوم وفرسالس .

٤٨ — ٤٧ قيصر فى مصر وسوريا ؛ ڤنروڤيوس المهندس المعمارى ؛ كولومللا النباتى .

٤٧ — انتصار قيصر فى زيلاوثبسوس ؛ انتحار كاتو الأصغر .

٤٦ — قيصر يعين دكتاتورا لمدة عشر سنوات ؛ تعديل التقويم ، سالست المؤرخ كتاب شيشرون **Pro marcello** .

٤٥ — قيصر يهزم أنصار پمپى فى أسبانيا ؛ كتابا شيشرون **Academica De Finibus** .

٤٤ — اغتيال قيصر ؛ كتب شيشرون **Disputationes Tusculanaec De nature pecorum, De officii** .

٤٣ — الحكومة الثلاثية الثانية ؛ أنطونيوس ، وأكتاڤيان وليبيدوس ، مقتل شيشرون .

٤٢ — موت بروتس وكاسيوس فى فلپاى .

٤١ — أنطونيوس وكليوبطره فى طرطوس .

٤٠ — صلح أنطونيوس وأكتاڤيان فى برنديزيوم ، نشيد الرعاة الرابع لڤرجيل .

٣٦ — أنطونيوس يغزو بارثيا .

٣٢ — أنطونيوس يتزوج كليوبطرة .

٣١ — أكتاڤيان يهزم أنطونيوس فى أكتيوم .

٣ — انتحار أنطونيوس وكليوبطرة ؛ ضم مصر إلى الإمبراطورية ؛ أكتاڤيان يحكم رومة بمفرده .

الباب السادس

الثروة الزراعية

١٤٥ – ٧٨ ق.م

الفصل الأول

العوامل التى هيأت البلاد للثورة

كان للثورة أسباب كثيرة ، وكان لها نتائج يخطئها الحصر ، وكانت الشخصيات التى أطاحت بها الأزمة من ابتداء ابنى جراكس إلى أغسطس من أقوى الشخصيات فى التاريخ ، ولم تنشب قط قبل الحرب أو بعدها إلى أيامنا هذه حرب كان لأهدافها من الخطر مثل ما كان لتلك الحرب ، ولم تمثل على المسرح العالمى فى يوم من الأيام مأساة ما تمثيلا أقوى مما مثلت به مأساة تلك الأيام . وكان أول أسباب هذه الثورة تدفق الحبوب الناتجة من عمل الرقيق فى صقلية وسردانية وأسپانيا وإفريقية ، وما أحدثه تدفقها من خراب حـــل بالزراع الإيطاليين ، إذ خفض ثمن الحبوب التى تنتجها أراضيهم إلى أقل من تكاليف إنتاجها . وكان سببها الثانى تدفق الرقيق الذين حلوا محل الزراع فى الريف والعمال الأحرار فى المدن ، وكان ثالث هذه الأسباب زيادة عـــدد الضياع الواسعة . وكانت الدولة قد أصدرت فى عام ٢٢٠ قانوناً يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ أن يتعاقدوا على الأعمال العامة أو يستثمروا أموالهم فى التجارة ، فلما أن زاد ثراؤهم من غرائم الحرب اشتروا بهذه الأموال مساحات واسعة من الأراضى الزراعية . وكانت الأرض فى البلاد المفتوحة تقسم فى بعض الأحيان قطعاً صغيرة وتباع للرومان

المستعمرين ، وقلت بذلك حدة الفتن والنزاع القائمين فى المدن ؛ وأعطى جزء كبير من هذه الأراضى للممولين وفاء ببعض ما أقرضوه للدولة من أموال فى أثناء الحروب ، أما الجزء الأكبر منها فقد ابتاعه أعضاء مجلس الشيوخ ورجال الأعمال أو استأجروه بشروط حددها مجلس الشيوخ نفسه ، وكان من أثر انتشار هذه الضياع الواسعة أن اضطر المالك الصغير إلى اقتراض المال بأرباح فاحشة يستحيل عليه الوفاء بها ، فلم يلبث أن وقع فى هاوية الفقر أو الإفلاس أو فقد أرضه ونزح إلى المدن ليسكن فى أحيائها القذرة الحقيرة الوبيئة . وآخر ما نذكره من أسباب الثورة ما طرأ على حال الفلاح نفسه من تغيير كبير لقد جند هذا الفلاح فى الجيش وهيأت له انتصاراته سبيل انتهاب الثروة من العالم ، وأصبح يكره العمل الانفرادى الرتيب الخالى من المغامرات فى الحقول ولا يستطيع الصبر عليه ، وكان أحب إليه من هذا العمل أن ينضم إلى صعاليك المدينة المشاغبين ، ويرقب الألعاب المثيرة فى المجتلدات بلا أجر ، ويأخذ الحبوب من الحكومة بأرخص الأثمان ، ويبيع صوته فى الانتخابات لمن يبتاعه بأغلى الأثمان أو لمن يمنيه بأعظم الأمانى ، ويختفى فى غمار الجماهير المعدمة الخاملة الوضيعة .

وأصبح المجتمع الرومانى يزداد اعتماده شيئاً فشيئاً على الانتهاب من الخارج واسترقاق فى الداخل ، بعد أن كان فى أول الأمر مؤلفاً من زراع أحرار . فأما فى المدن فكانت كل الخدمات المنزلية ، وكان كثير من الصنائع اليدوية . ومعظم الأعمال التجارية ، وكثير من الأعمال المصرفية ، وكل أعمال المصانع والأشغال العامة ، كانت هذه الأعمال كلها يقوم بها الأرقاء ، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أجور العمال الأحرار انخفاضاً يكاد يجعل الكدح والبطالة فى الكسب سواء ؛ وكان الأرقاء فى الضياع الواسعة يفضلون على العمال الأحرار لأنهم لم يكونوا يلزمون بالخدمة العسكرية ، لأن عددهم كان يمكن الاحتفاظ به جيلا بعد جيل نتيجة المتعة الوحيدة التى كان يسمح لهم بها أو نتيجة الرذيلة التى كان ينهمك فيها

سادتهم(*) ؛ وكانت الغارات لا تنقطع على بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها للمجيء بالأداة الحية اللازمة للمزارع التى تصنعت . وكان يضاف إلى أسرى الحرب الذين يساقون إلى رومة بعد كل معركة تنتصر فيها جيوشها ضحايا القراصنة الذين كانوا يقبضون على العبيد أو الأحرار على سواحل آسية أو بالقرب منها ، وضحايا الموظفين الرومان الذين كانوا يقتنصون الناس اقتناصاً منظماً ويستعيدون من أهل الولايات كل من لا يجرؤ حكامها المحليون على حمايته(١) . ولم يكن يمضى أسبوع لا يأتى فيه النخاسون بفرائسهم البشرية من إفريقية ، واسپانية ، وغالة ؛ وألمانية ، والبلاد الواقعة على ضفتى نهر الطونة ، والروسيا ، وآسية ، واليونان — من هذه الأقاليم كلها إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . ولم يكن من هذه الحوادث غير المألوفة أن يباع فى ديلوس مائة ألف من الأرقاء فى يوم واحد . وقد قبضت الجيوش الرومانية فى عام ١٧٧ على أربعين ألفاً من أهل سردانية ، وفى عام ١٦٧ على مائة وخمسين ألفاً من أهل أپيروس ، بيعوا فى أسواق النخاسة . وكان ثمن الواحد منهم فى الحالة الثانية لا يزيد على ما يعادل ريالا أمريكياً(٢) . وكان مما خفف من شقاء الأرقاء فى المدينة ما كان يبرم من العقود الإنسانية بينهم وبين سادتهم ؛ وما كانوا يطمعون فيه من نيلهم حريتهم ؛ أما فى الضياع فلم يكن يسمح للصلات الإنسانية بأن تتدخل فى أعمال الاستغلال ؛ فلم يعد العبد فى تلك الضياع عضواً فى الأسرة كما كان فى بلاد اليونان أو فى رومة نفسها فى عهدها الأول ؛ وقلما كان العبد يرى مالكه ، وكان يطلب إلى الحراس أن يعتصروا من هذه الآلات البشرية الموكولة إلى أسواطهم كل ما يستطيعون اعتصاره منها ، وبقدر هذا الاعتصار يكون أجر هؤلاء الحراس . أما أجر العبد نفسه فى الضياع الواسعة فلم يكن يزيد على ذلك القدر من الطعام والكساء الذى يمكنه من أن

(*) يقصد بهذه العبارة تناسل هؤلاء الأرقاء فيما بينهم أو بين النساء وأسيادهن .
(المترجم)

يكدح كدحاً متواصلا فى كل يوم من شروق الشمس إلى غروبها — عدا بعض أيام الأعياد — حتى تدركه الشيخوخة . فإذا شكا أو عصى أمر حارسه ألزم أن يعمل ورجلاه مكبلتان بالأغلال ، وأن يقضى الليل فى جب تحت الأرض ergastulum لا تكاد تخلو منه كل ضيعة واسعة . لقد كان فى هذا النظام من التلف والخسارة الاقتصادية بقدر ما فيه من الوحشية ، لأنه لم يكن يعول إلا نحو جزء من عشرين جزءاً من الأسر التى كانت تعيش من قبل على هذه الأرض نفسها معيشة الأحرار من الناس .

وإذا ذكرنا أن نصف هؤلاء الأرقاء ، إن لم يكن أكثر من نصفهم ، كانوا من قبل أحراراً (لأن الأرقاء قلما كانوا يشتركون فى الحروب) ، كان مقدورنا أن نتصور ما يشعر به هؤلاء البائسون المحطمون من مرارة ، ولا يسعنا إلا أن نعجب من ندرة ما كانوا يلجئون إليه من الثورات . وقد حدث فى عام ١٩٦ ، أن ثار أرقاء الريف فى إتروريا وعمالها الأحرار ، ولكن الجيوش الرومانية أرهبتهم « وقتلت الكثيرين منهم أو أسرتهم ومنهم من جلدوا أو صلبوا عقاباً لهم على فعلتهم » كما يقول ليڤى(٣) . وحدثت مثل هذه الثورة عام ١٨٥ فى أپوليا ؛ فقبض على سبعة آلاف من العبيد وحكم عليهم أن يعملوا فى المناجم(٤) . وكان أربعة آلاف من الأرقام الأسپان يعملون فى مناجم قرطاجنة الجديدة وحدها ؛ وفى عام ١٣٩ شبت نار « حرب الأرقاء الأولى » فى صقلية ، فقد لبى دعوة إينوس Eunus أربعمائة من الأرقاء وذبحوا الأحرار من أهل مدينة إنا Enna ، ثم أقبلت أفواج العبيد من الضياع ومن الأجباب الخاصة فى صقلية ، فضاعفوا عدد الثوار حتى بلغ سبعين ألفاً . وما لبثوا أن احتلوا أجرجنتم Agrigentum ، وهزموا الجيوش الرومانية التى كانت فى الولاية ، واستولوا على الجزيرة كلها تقريباً ،

واحتفظوا بها حتى عام ١٣١ ؛ وفى تلك السنة حاصرهم جيش القنطل فى إنا ومنع الزاد حتى اضطرهم الجوع إلى الاستسلام ؛ وسيق اينوس الى رومة ، وألقى فى جب تحت الأرض ، وبقى فيه حتى قضى عليه الجوع والقمل(٥) . وقامت للثورات أقل من هذه شأناً التهت بإعدام مائة وخمسين من الأرقاء فى رومة ، وأربعمائة وخمسين فى منتورنا Menturnae وأربعة آلاف فى سينوسا Sinuessa . وفى تلك السنة استصدر تيبيريوس جراكس Tiberius Dracchus القانون الزراعى الذى فتح باب الثورة الرومانية على مصراعيه .

الفصل الثانى

تيبيريوس جراكس

هو ابن تيبيريوس سمبرينوس جراكس Tiberiue Sempronius Graccus الذى تدين له أسپانيا بالشكر لأنه حكمها حكماً عادلا كريما ، والذى عين قنصلا مرتين ورقيباً مرة ، والذى أنقذ من الهلاك أخا سپيو الإفريقى وتزوج ابنته ، وأنجبت كرنليا اثنى عشر طفلا توفوا كلهم إلا ثلاثة منهم قبيل البلوغ ، وتحملت هى بعد وفاته عبء تربية تيبيريوس وكيوس وأخت لهما — تدعى أيضاً كرنليا — صارت فيما بعد زوجة سپيو إيميليانس ؛ وكان للزوج والزوجة نصيب من الثقافة الهلينية ، وكان ممن يعطفون على الدائرة الثقافية السپيونية ؛ وكان لكرنيا ندوة أدبية ، وكتبت رسائل بأسلوب سليم رشيق جعلها من خير ما كتب فى الآداب اللاتينية ، ويقول أفتوطوخس إن ملكا من ملوك مصر عرض عليها بعد أن ترملت أن تتزوجه ، وأن ينزل لها عن عرشه ؛ فأبت وآثرت أن تبقى ابنة لسپيو ، وحماة لسپيو آخر وأماً لجراكس .

ونشأ تيبيريوس وكيوس جراكس فى جو مشبع بطرائق الحكم والفلسفة عرفا فيه مشاكل الحكومة الرومانية ونظريات الفلسفة اليونانية . وقد تأثرا بآراء بلسيوس Blossius وهو فيلسوف يونانى من كومى Cumae بعث فيهما نزعة حرة قوية استخفت بقوة المحافظين فى رومة . ويكاد الأخوان أن يكونا متماثلين فى طموحهما ، وكبريائهما ، وإخلاصهما وفصاحتهما التى لا يكاد يصدقها العقل ، وشجاعتهما التى لا تشوبها قط شائبة . ويحدثنا كيومن أن تيبيريوس شاهد مأساة الزراع ، وتأثر بها أشد التأثر حين كان مسافراً فى إترووريا « فرأى قلة السكان ولاحظ أن الذين كانوا يحرثون

الأرض ويرعون قطعان الضأن هم العبيد الأجانب »(٦) ، وإذ كان تيبيريوس يعرف وقتئذ أن الملاك وحدهم هم الذين يجندون للخدمة فى الجيش فقد سأل نفسه كيف تستطيع رومة أن تحتفظ بزعامتها أو استقلالها إذا حل محل زراعها الأقوياء الذين كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة فى الفيالق الرومانية عبيد غرباء لا تربطهم بها صلة ما ؟ وكيف تكون الحياة الرومانية حياة طيبة ، الدمقراطية الرومانية دمقرطية صالحة ، إذا غصت بصعاليك المدن المعدمين بدل الزراع الأباة الأعزاء الذين يمتلكون الأرض ويفلحونها بأنفسهم ؟ وخيل إليه أن توزيع الأرض على المواطنين الفقراء هو الحل الصحيح البين الذى لا بد من الالتجاء إليه لحل المشاكل الثلاث القائمة وقتئذ فى البلاد : الاسترقاق فى الريف ؛ والازدحام والفساد الخلقى فى المدن وضعف الروح الحربية بين المواطنين .

وما كاد تيبيريوس جراكس يختار تربيونا فى مستهل عام ١٣٣ حتى أعلن أنه يعتزم أن يعرض على الجمعية القبلية ثلاثة اقتراحات (١) ألا يسمح لأى مواطن أن يمتلك اكثر من ٣٢٣ فدانا — أو ٦٦٧ فدانا إذا كان له اثنان من الأبناء — من الأراضى المشتراة أو المستأجرة من الدولة (٢) وأن يُرد إلى الدولة كل ما عدا هذا القدر من الأرض العامة التى باعتها أو أجرتها للأفراد ، على أن ترد الدولة لهم أثمانها أو الإيجار الذى أدوه مضافاً إلى قدر من المال نظير ما أنفقوه فى إصلاحها (٣) وأن تقسم هذه الأراضى التى ترد إلى الدولة إقطاعيات مساحة كل منها عشرون فدانا توزع على المواطنين الفقراء على شرط أن يعهدوا بألا يبيع أحد منهم نصيبه من هذه الأرض ؛ وأن يؤدوا عنها ضريبة سنوية إلى خزانة الدولة ولم يكن هذا الإصلاح الزراعى خيالا متعذر التنفيذ ، بل كان مجرد محاولة لتنفيذ قوانين ليسنيوس كالفس Licinius Calvus الصادرة فى عام ٣٦٧ ق . م والتى ألغيت ولم تنفذ قط . وقد قال تيبيريوس للعامة الفقراء فى إحدى خطبه الشهيرة التى تعد من أعظم الخطب فى التاريخ الرومانى كله :

« إن لحيوانات الأرض جحورها ولطير الهواء أوكارها ومخابئها ، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها إلا بالضوء والهواء . إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم وأضرحتهم ، ولكن نداءهم هذا نداء سخيف باطل ، إذ ليس فى وسعك أن تدلهم على مذبح لآبائهم يقربون فيه لآلهتهم ، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم . إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والترف ، ويقال لكم : إنكم سادة العالم ، ولكنكم لا تجدون فى هذا العالم موضعاً لقدم ، فى وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم »(٧) .

وأعلن مجلس الشيوخ أن هذه الاقتراحات ليست فى واقع الأمر إلا مصادرة لأموال الناس ، واتهم تيبيريوس بأنه يعمل ليكون طاغية حاكماً بأمره ، وأقنع إكتافيوس وهو تريبون آخر أن يستخدم ماله من حق الاعتراض فى منع عرض المشروع على الجمعية ، فما كان من جراكس إلا أن تقدم باقتراح يقضى بأن كل تريبون يعمل ضد مصالح من يمثلهم يجب أن يسقط على الفور من عداد أعضاء الجمعية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح وأخرج حرّاس تيبيريوس أكتافيوس قوة واقتداراً من قاعة الجمعية على الفور ، ووافقت الجمعية بعدئذ على الاقتراحات الأصلية فأصبحت قانوناً واجب التنفيذ ، ثم أوصلته محروساً إلى منزله لخوفها أن يغتاله مغتال فى الطريق(٨) .

غير أن تحكمه غير المشروع فى حق التربيون فى الاعتراض ، وهو الحق الذى جعلته الجمعية نفسها من أقدم الأزمان حقاً مطلقاً غير مقيد بقيد ما ، قد وضع فى معارضيه سلاحاً يشهرونه فى وجهه ويقضون به على قانونه ؛ فجهروا بعزمهم على أن يتهموه فى نهاية العام الذى يتولى فيه منصبه بالخروج على دستور البلاد واستخدام العنف ضد أحد التربيونيين . وأراد تيبيريوس أن يحمى نفسه بالسخرية من الدستور مرة أخرى ، وذلك بترشيح نفسه

لأن يعاد اختباره تربيونا فى عام ١٣٢ . وإذا كان إيمليانس وليليوس وغيرهما من الشيوخ الذين عضدوا اقتراحه الأول قد تخلوا عنه الآن ، فقد لجأ بكليته إلى العامة ووعدهم بأن ينقص إذا اختاروه مدة الخدمة العسكرية ويلغى استئثار الشيوخ بأعمال المحلفين ، وأن يجعل حلفاء رومة من الإيطاليين مواطنين رومانيين . ورفض مجلس الشيوخ فى هذه الأثناء اعتماد الأموال التى طلبتها اللجنة الزراعية التى نيط بها تنفيذ قوانين تيبيريوس فلما أوصى أتلس الثالث Atallus III ملك برجموم Pergamum بمملكته لرومة فى عام ١٣٣ عرض جراكس على الجمعية أن تباع أملاك أتلس الخاصة والمنقولة ، وأن يوزع ما يتحصل من بيعها على من نالوا إقطاعات من أراضى الدولة ليبتاعوا بها ما تحتاجه مزارعهم من أدوات ؛ وأثار هذا الاقتراح غضب مجلس الشيوخ لأنه رأى أن ما له من سيطرة على الولايات وعلى الأموال العامة قد أخذت تنتقل إلى جمعية قوية الشكيمة غير ممثلة للبلاد ، معظم أعضائها من أصل وضيع ومن غير أبناء البلاد الأصليين ، فلما كان يوم الانتخاب ظهر جراكس فى السوق العامة بملابس الحداد ومن حوله حراس مسلحون للدلالة على أن هزيمته فى الانتخاب ستؤدى إلى اتهامه وإعدامه . وحدث فى أثناء الاقتراع أن لجأ كلا الطرفين إلى العنف . ونادى سيپيو نسكا Seipio Nasica بأن تيبيريوس يريد أن ينصب نفسه ملكاً ، وقاد الشيوخ إلى السوق العامة مسلحين بالهراوات . وارتاع أنصار جراكس حين شاهدوا أثواب الأشراف الفخمة فتخلوا عنه ، وأصيب تيبيريوس بضربة على أم رأسه خر على أثرها صريعاً وهلك معه بضع مئين من أتباعه . ولما طلب كيوس Caius أخوه الأصغر أن يؤذن له بدفنه لم يجب إلى طلبه ، وألقيت جثث العصاة الموتى فى نهر التيبر وكرنليا فى أثناء ذلك حزينة باكية .

وأراد مجلس الشيوخ أن يهدئ من ثورة العامة فوافق على تنفيذ قوانين جراكس . ويستدل من ازدياد عدد المواطنين المدونة أسماؤهم

فى السجلات بمقدار ٧٦٠٠٠ من عام ١٣١ إلى ١٢٥ على أن مساحات واسعة من الأراضى قد وزعت حقاً على الزراع ، ولكن اللجنة الزراعية وجدت نفسها أمام عقبات كثيرة . ذلك أن كثيراً من الأراضى التى يراد توزيعها كانت قد أخذت من الدولة قبل ذلك الوقت بعدة سنين أو بعدة أجيال ، وأصبح لمن يمتلكونها وقتئذ حقوق اكتسبوها بوضع أيديهم عليها زمناً طويلا ، وأن منها أراضى كثيرة أخرى قد ابتاعها الملاك الجدد بأثمان غالية ممن اشتروها من الحكومة بأثمان منخفضة . ولجأ أحلاف رومة الإيطاليون الذين أضرت القوانين بحقوقهم التى اكتسبوها بوضع اليد إلى سبيو إيمليانس ليحميهم من اللجنة الزراعية ، واستطاع بما له من النفوذ أن يؤجل عملها فاستشاط الرأى العام غضباً عليه لهذا العمل ، واتهمه بالخيانة وعدم الوفاء بذكرى جراكس التى أضحت وقتئذ ذكرى عزيزة مقدسة ، وفى صباح يوم من أيام عام ١٢٩ وجد الرجل ميتاً فى فراشه ، وأكبر الظن أن يداً أثيمة قد اغتالته ولم يعرف أحد من هو هذا المغتال

الفصل الثالث

كيوس جراكس

وأخذ النمامون الذين خلت قلوبهم من الرحمة يشيعون أن كرنليا قد ائتمرت مع ابنها زوجة سپيو المشوهة المكروهة على قتل تيبيريوس ؛ وأخذت كرنليا وسط هذه الكوارث الفادحة تواسى نفسها بالعكوف على العناية بابنها الذى لم يبق لها فى هذا العالم عزيز سواه . ولم يكن ما أثاره مقتل تيبيريوس فى قلب أخيه كيوس هو مجرد الرغبة فى الانتقام ، بل أثار فيه صادق العزم على أن يتم ما بدأه أخوه . وكان قبلئذ قد أظهر كثيراً من الذكاء والشجاعة فى أثناء خدمته بقيادة إيميليانس فى نوماتيا ، ونال إعجاب الناس على اختلاف مشاربهم باستقامته وبساطة معيشته ، وكان رجلا حاد المزاج جياش العواطف ، إذا ثار زادت حدتها لطول كبتها ، وقد أصبح بفضلها أعظم خطباء الرومان قبل أيام شيشرون ، وفتحت أمامه أبواب المناصب كلها تقريباً فى مجتمع كان للفصاحة فيه المحل الثانى بعد الشجاعة فى رقى الرجال وبلوغهم أسمى المراتب . لهذا كله اختير تربيونا فى خريف عام ١٢٤ .

وكان كيوس رجلا واقعياً أكثر من أخيه ، ومن ثم أدرك أن لا بقاء لأى إصلاح إذا لم يقو على مغالبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية فى الدولة ، ولذلك استقر رأيه على أن يضم إلى جانبه خمس طبقات من طبقات الشعب المختلفة : طبقة الزراع ، والجيش وعامة المدن ورجال الأعمال . فأما الطبقة الأولى فقد ضمها إليه بالعودة إلى القوانين الزراعية التى سنها أخوه ، ووسع مداها بأن طبقها على الأراضى الزراعية التى تمتلكها الدولة فى الولايات التابعة لها ، ثم أعاد تشكيل لجنة الأراضى ، وأشرف بنفسه على أعمالها . وحقق مطامع الطبقات الوسطى بإنشاء مستعمرات جديدة فى كبوا ، وتارنتم وناربو Narbo ، وقرطاجنة ، وبتنمية هذه

المستعمرات وجعلها مراكز مزدهرة للتجارة . وأرضى الجنود بأن قرر أن تؤدى أثمان ملابسهم من الخزانة العامة ، وأرضى عامة المدن بإصدار قانون الحبوب lex frumentaria وبمقتضاه أخذت الحكومة على نفسها أن تعطى القمح لكل من يطلبه بسعر ستة آسات وثلث آس لكل موديوس Modius (أى بما يعادل $\frac{٣٦}{٣٠٠}$ من الريال الأمريكى لكل جالونين) وهو نصف ثمنه فى السوق . وكان هذا العمل الأخير صدمة عنيفة للمبادئ الرومانية القديمة — مبادئ الاعتماد على النفس — كما كان له آثار خطيرة فى التاريخ الرومانى كله . وكان كيوس يعتقد أن تجار الحبوب يبيعونها للجمهور بضعفى نفقات إنتاجها ، وأن الإجراء الذى اتخذه لن يكلف الدولة خسارة ما لأن توحيد عمليات البيع والشراء سينزل بالنفقات إلى حد كبير . وسواء كان هذا أو لم يكن فإن القانون قد جعل الفقراء من سكان المدن الأحرار يناصرون ابنى جراكس ويناصرون من بعدهما مارينوس وقيصر بدل أن كانوا موالى للأشراف وأتباعاً لهم ، يعملون لإطعامهم وتوفير أسباب الترف لهم ، كما كان عماد الحركة الدمقراطية التى بلغت ذروتها فى كلوديوس Clodius وقضى عليها فى أكتيوم .

وكان الإجراء الخامس يهدف إلى تثبيت سلطان الحزب الذى ينتمى إليه بالقضاء على السنة المتبعة من زمن قديم والتى تجعل الأغنياء يقترعون فى الجمعية المئوية قبل غيرهم من الطبقات ، فاستبدل كيوس بهذه السنة تقليداً جديداً يجعل المئات فى الجمعية يعطون أصواتهم حسب نظام يعين بالقرعة . ثم استرضى رجال الأعمال بأن جعل لهم وحدهم حق العمل محلفين عند النظر فى جرائم الولايات ، فأصبحوا بذلك حكاماً فى قضاياهم إلى حد بعيد . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يستثير مطامعهم فاقترح أن تفرض على جميع غلات آسية الصغرى ضريبة توازى عشر هذه الغلات يجبونها هم أنفسهم . ثم زاد ثراء المقاولين ، وأنقص عدد المتعطلين ، بأن وضع برنامجاً لإنشاء الطرق فى كافة أنحاء إيطاليا . ولقد

كانت هذه القوانين فى جملتها — رغم ما يغشى بعضها من خداع سياسى — أعظم مجموعة من التشريع الإنشائى سنت لرومة قبل أيام قيصر .

واستطاع كيوس باعتماده على هـذا العون المتعدد النواحى أن يطرح ما جرت به العادة من قديم ، وأن يُختار تربيوناً للمرة الثانية . وأكبر الظن أنه قد فكر فى ذلك الوقت فى السيطرة على مجلس الشيوخ بإضافة ثلثمائة عضو جديد إلى أعضائه الثلثمائة ، تختارهم الجمعية من بين رجال الأعمال . واقترح كذلك أن يعطى حق الانتخاب كاملا لجميع الأحرار من سكان لاتيوم ، وأن يعطى هذا الحق منقوصاً إلى سائر الأحرار من سكان إيطاليا . وكانت هذه أجرأ حركة قام بها فى طريق الدمقراطية السياسية ، ولكنها كانت أيضاً أول ما ارتكب من أغلاط فى خططه . ذلك أن من كان لهم حق الاقتراع لم يتحمسوا كثيراً لأن يشترك معهم غيرهم فى هذه الميزة التى اختصوا بها حتى ذلك الوقت ، ولو كان شركاؤهم فيها قوم لا يستطيع حضور جلسات الجمعيات فى رومة إلا أقلية صغيرة منهم ، ولم يدع مجلس الشيوخ هذه الفرصة تفلت من بين يديه ، ذلك أن كيوس كاد يتجاهله ولا يحسب له حساباً حتى ظن أنه قد فقد كل ما كان له من قوة ومكانة فى البلاد ، ولم ير فى هذا التربيون النابه لا زعيماً شعبياً مستبداً يريد أن يستحوذ لنفسه على أكبر قسط من السلطة بتوزيع أملاك الدولة وأموالها ذات اليمين وذات الشمال ؛ ولاح له فجأة حليف جديد هو صعاليك رومة الغيورون على حقهم القديم ، وانتهز فرصة غياب كيوس ، وكان قد غادر رومة ليثبت قواعد مستعمرته الجديدة فى قرطاجنة ، فأشار على تربيون آخر هو ماركس ليڤيوس دروسس Marcus Livius Drosus أن يضم إليه الزراع الجدد بإصدار قانون يلغى به الضرائب المفروضة على أراضيهم بمقتضى قوانين جراكس ، وأن يسترضى صعاليك المدن ويضعفهم فى الوقت نفسه بأن يقترح إنشاء اثنتى عشرة مستعمرة جديدة فى إيطاليا تتسع كل واحدة منها لثلاثة آلاف من رجال رومة . ووافقت الجمعية من فورها

على هذين المشروعين ، ولما عاد كيوس وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب ، ينازعه الزعامة عند كل خطوة يخطوها . ورشح كيوس نفسه لأن يختار تربيونا مرة ثالثة ولكنه هزم ، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصـــوات الناخبين قد تناولها الغش والتزوير ، غير أنه نصح أتباعه بألا يلجئوا إلى وسائل العنف واعتزل السياسة وفضل عليها الحياة الخاصة .

وأشار مجلس الشيوخ فى العام الثانى أن تجلو رومة عن المستعمرة المنشأة فى قرطاجنة ، وفسرت الأحزاب جميعها هذا الاقتراح — سراً أو جهراً — بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين جراكس لإلغائها . وجاء بعض أنصار جراكس إلى الجمعية مسلحين ، وقتل أحدهم رجلا من المحافظين هم بالقبض على كيوس . فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلا أن خرجوا فى اليوم الثانى على استعداد تام للقتال ، ومع كل منهم عبدان مسلحان ، وهاجموا أنصار جراكس المتحصنين فوق تل الأفنتين . وبذل كيوس كل ما فى وسعه لتسكين الفتنة ، ومنع اعتداء كلتا الطائفتين على الأخرى ؛ فلما عجز عن ذلك ولى هارباً وعبر نهر التيبر ، ولما أن لحقه أعداؤه أمر خادمه أن يقتله ، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه . وقطع أحد أصدقاء كيوس رأس صديقه ، وحشاها بالرصاص المصهور ، وحملها إلى مجلس الشيوخ ، وكان المجلس قد أعلن أنه يكافئ من يأتيه بهذا الرأس بما يساوى وزنه ذهباً(٩) . وقتل من أنصار كيوس فى المعركة مائتان وخمسون ، وأعدم ثلاثة آلاف غيرهم تنفيذاً لقرار أصدره مجلس الشيوخ ؛ ولما ألقيت جثته وجثث أتباعه فى نهر التيبر لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لخيرهم ، ذلك أن هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ فى شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته(١٠) ؛ وحرم مجلس الشيوخ على كرنليا أن تلبس ثياب الحداد حزناً على ولدها .

الفصل الرابع

ماريوس

واستخدم الأشراف الظافرون كل ما وهبوا من ذكاء لهدم العناصر الإنشائية من تشريعات كيوس لا العناصر التى أراد بها كسب محبة الشعب الرومانى . فلم يجرءوا مثلا على إخراج رجال الأعمال من منصب المحلفين فى القضايا ، أو أن يحرموا المكاسين والمقاولين مرابع صيدهم الوفيرة فى آسية ، ورضوا بأن يظل توزيع الحبوب على الأهلين كما كان حتى لا يثور الشعب . ثم أفسدوا ذلك القرار الصالح قرار توزيع الأراضى على الفقراء بأن أضافوا إليه مادة تجيز لملاك هـــذه الأراضى الجديدة أن يبيعوها ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى باع آلاف منهم ما يمتلكون إلى كبار ملاك الرقيق ، وأخذت الضياع الكبيرة تعود إلى سابق عهدها . ثم ألغيت لجنة الأراضى فى عام ١١٨ ، ولم تحتج الجماهير فى العاصمة على الإلغاء ، لأن الجماهير قد عقدت النية على أن الأكل من قمح الدولة فى المدينة خير من فلح الأرض أو الكدح فى المستعمرات الناشئة . وتعاون الكسل والتخريف (ونقول التخريف لأن أرض قرطاجنة كانت فى زعمهم أرضاً منحوسة ملعونة) على إبطال كل محاولة بذلت قبل أيام قيصر للتخفيف من حدة الفقر بالهجرة إلى خارج البلاد . وزاد ثراء الأثرياء ولكن عدد الأثرياء لم يزد على ما كان من قبل ، وقد قرر أحد الدمقراطيين المعتدلين فى عام ١٠٤ أن عدد الملاك من المواطنين الرومان لا يزيد على ألفى مالك[١١] . وفى ذلك يقول أپيان Oppian : « إن الفقراء قد أصبحت حالهم أسوأ مما كانت من قبل وقد كانت من قبل سيئة » . . . فقد خسر العامة كل شىء . . وظل عـــدد المواطنين والجنود يتناقص تناقصاً مطرداً »[١٢] ، وكان لا بد من سد النقص فى صـــفوف الجند بمجندين من الولايات

الإيطالية ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم صبر على القتال ، ولم تكن قلوبهم عامرة بحب رومة ؛ وأخذ عدد الفارين من الجند يتضاعف على مدى الأيام ، واختل النظام فى الجيش وانحطت قدرة المدافعين عن الجمهورية إلى أدنى حل:

ولم تلبث أن هاجمها الأعداء ، وكاد هجومهم عليها أن يكون من الشمال ومن الجنوب وفى وقت واحد . ذلك أن قبيلتين من قبائل الكلت وهما قبيلتا السمبريين والتيوتون انحدرت جموعهما كالسيل الجارف فاخترقت ألمانيا عام ١١٣ فى عربات مغطاة ، وكانت عدتهم ثلثمائة ألف من المحاربين ، ومعهم أزواجهم وأبناؤهم ودوابهم ، وكأنهم أرادوا أن يشعروا رومة بما يتهددها من أخطار فى المستقبل القريب . ولعل هؤلاء الأقوام قد ترامى إليهم من فوق جبال الألب أن رومة قد افتتنت بالثروة وكرهت الحرب ، وكان القادمون الجدد طوال القامة ، أقوياء البنية ، شجعاناً لا يجد الخوف سبيلا إلى قلوبهم ، وكانوا بيض البشرة شقر الشعر حتى قال عنهم الإيطاليون إن شعر أطفالهم أبيض كشعر الشيوخ . والتقوا بجيش رومانى فى نوريا Noreia وهى نورماكت Neurmarkt الحالية فى كارنثيا) وأفنوه عن آخره ؛ ثم عبروا نهر الرين وهزموا جيشاً رومانياً آخر ، ثم تدفقوا غرباً إلى غالة الجنوبية وبددوا شمل جيش رومانى ثالث ورابع وخامس ، وأسفرت معركة أروسيو Arausio (أورنج) عن قتل ثمانين ألفاً من الجيوش الرومانية النظامية ، وأربعين ألفاً من المدنيين الذين يتعقبون معسكرات الجنود(١٣) . وتفتحت أبواب إيطاليا بعد هذه المعارك أمام الغزاة ، واستوى الرعب على رومة وكان رعباً لم تعرف له مثيلا منذ أيام هنيبال .

وفى الوقت عينه تقريباً شبت نار الحرب فى نوميديا . وذلك أن يوجورثا Jugurtha حفيد هاسنسا عذب أخاه تعذيباً انتهى بموته وحاول أن يحرم أبناء عمه حقهم فى الملك ، فأعلن مجلس الشيوخ الحرب عليه فى عام ١١١ لعله يستطيع أن يجعل نوميديا ولاية رومانية ويفتح أبوابها للتجارة ولرؤوس

الأموال الرومانية ، واستطاع يوجورثا أن يبتاع بالمال بعض الأشراف ليدافعوا عن قضيته وعن جرائمه أمام مجلس الشيوخ ، وأن يرشوا القواد الذين أرسلوا لقتاله ، فعقدوا معه صلحا مواتيا أو اكتفوا بمناوشات لا تلحق به أذى . ولما استدعى إلى رومة كان أكثر سخاء منه قبل قدومه إليها ، واستطاع بذلك أن يعود إلى عاصمته دون أن تقام فى سبيله العقبات(١٤) .

ولم يخرج من هذه الحروب موفور الكرامة سليم الشرف إلا ضابط واحد هو جايوس ماريوس Caius Marius . وقد ولد هذا القائد كما ولد شيشرون فى أرپينوم Arpinum وكان والده عاملا يتقاضى أجراً يومياً قليلا ، وتطوع فى الجيش وهو صغير السن ، وأصيب بعدة جراح فى نومنتيا Numantia ، وتزوج من عمة لقيصر ، واختير تريبونا رغم جهله وسوء أخلاقه أو بسبب جهله وسوء أخلاقه ، ولما عاد من الخدمة العسكرية فى خريف عام ١٠٨ ، وكان وقتئذ ياوراً لكوتتس متلس Quintus Metelius القائد الضعيف العاجز فى إفريقية ، اعتلى منصة للخطابة وطلب أن يختار قنصلا بدل متلس ، وقطع على نفسه عهدا إذا اختير لهذا المنصب أن يقود الجيوش الرومانية إلى النصر فى الحرب اليوجورثية . فأجابه الشعب إلى طلبه ، وتولى قيادة الجيش ، وأرغم يوجورثا على الاستسلام له فى عام ١٠٦ ، ولم يعلم الشعب وقتئذ أن أكبر من عمل للنصر فى هذه الحرب شاب جرىء من الأشراف هو لوسيوس صلا Lucus Sulla وإن كان قد عرف منه ذلك فيما بعد . أما فى ذلك الوقت فقد استمتع ماريوس بأعظم ما يستمتع به القائد المنتصر ، وبلغ من حب الشعب له أن تجاهلت الجمعية نصوص الدستور المحتضر ، وصارت تنتخبه قنصلا عاماً بعد عام (من ١٠٤ — ١٠٠) . وناصره رجال الأعمال لأن انتصاراته قد فتحت آفاقا جديدة لمشروعاتهم الاستغلالية من جهة ، ولأنهم رأوه الرجل الوحيد الذى كان فى استطاعته أن يرد جحافل الكلت من جهة أخرى . وتبينت رومة من ذلك الوقت

فى عم قيصر منافع القيصرية — ذلك أن الدكتاتورية الممثلة فى قائد محبوب من الشعب ، ومن ورائه جيش مخلص له ، قد بدت للكثيرين من الرومان المنهوكى القوى البديل الوحيد من المساوىء الأجركية التى تلازم الحرية .

وكانت الجافل السمبرية بعد انتصارها فى أروسيو قد أجلت زحفها على رومة ، وعبرت جبال البرانس ، وعاثت فى أسپانيا فساداً ، غير أنها عادت إلى غالة فى عام ١٠١ ، وهى أكثر عدداً مما كانت قبل ، واتفقت مع التيوتون على أن يهاجما السهول الغنية فى شمال إيطاليا من طريقين مختلفين ولجأ ماريوس فى صد هذا الخطر المحدق بالمدينة إلى طريقة جديدة من طرق التجنيد أحدثت انقلاباً خطيراً فى الجيش أولا وفى الدولة نفسها فيما بعد . ذلك أنه دعا إلى الخدمة العسكرية كل من شاء من المواطنين سواء كان له ملك أو لم يكن . وعرض أجوراً مغرية على المتطوعين ، ووعدهم أن يطلق سراحهم وأن يقطعهم أرضاً فى نهاية الحرب . وكان معظم الجيش الذى جمع بهذه الطريقة مكوناً من فقراء المدن ، وكانت عواطفه معادية لجمهورية الأشراف ، وكان إذا حارب لا يحارب دفاعاً عن بلاده بل يحارب فى سبيل قائده ومن أجل الغنائم . وبهذه الوسيلة وضع ماريوس الأساس العسكرى للثورة القيصرية ، ولعله فعل ذلك على غير علم منه . وكان ماريوس جندياً لا رجلا سياسياً ، ومن ثم فإنه لم يكن يتسع وقته لتدبر العواقب السياسية البعيدة . فلما أن ألف الجيش بهذه الطريقة السالفة الذكر قاده فوق جبال الألب وقوى أجسام جنده بالسير الطويل والتدريب ، كما قوى قلوبهم بالهجوم على مواقع كان من السهل التغلب عليها ، وكان يرى أن من المجازفة أن يلتحم وإياهم فى حرب حقيقية إلا بعد أن يتم تدريبهم على هذا النحو . ومر التيوتون بمعسكره دون أن يلقوا مقاومة ما ، وكانوا يسألون الرومان ساخرين هل يريدون أن يبعثوا معهم برسائل إلى زوجاتهم اللاتى يوشك هؤلاء أن يستمتعوا بهن . وفى وسع القارىء أن يتصور عدد هؤلاء التيوتون إذا علم أنهم قضوا فى مرورهم بمعسكر

الرومان ستة أيام كاملة . فلما أن تم مرورهم أمر ماريوس جنده بالانقضاض على مؤخرتهم ؛ ودارت بين الجيشين معركة عند أكوا سكستيا Sextiea Aquae (١٠٢) (وهى مدينة إكس Aix فى مقاطعة بروڤانس Provence) وبلغ عدد القتلى والأسرى من جيوش التيوتون مائة ألف . وفى ذلك يقول أفلوطرخس : « ويقال إن أهل مرسيليا أقاموا حول كرومهم أسواراً من عظام القتلى وإن الأرض بعد أن تحللت فيها أجسامهم وهطلت عليها أمطار الشتاء أخصبها ما تسرب إليها من المواد المتعفنة ، حتى بلغ محصولها فى الموسم الذى تلا ذلك الفصل درجة من الوفرة لم يكن لها مثيل من قبل[١٥] » .

وبعد أن أراح ماريوس جيشه عدة شهور رجع على رأسه إلى إيطاليا والتقى بالسمبريين فى ڤرسلا Vercellae بالقرب من نهر البو (١٠١) فى المكان الذى انتصر فيه هنيبال على الرومان فى أول معركة خاض غمارها معهم . وأراد البرابرة أن يظهروا قوتهم وبأسهم ، فساروا عراة الأجسام وسط الثلوج ، وتسلقوا الجبال المكسوة بالجليد ، وخاضوا مناسفه العميقة إلى قلل الجبال ، ثم انزلقوا منها وهم يهللون ويضحكون فوق المنحدرات الوعرة ، واستخدموا دروعهم مزالق فى أقدامهم[١٦] . فلما دارت المعركة بعدئذ بينهم وبين الرومان لم يكد يبقى منهم أحد على قيد الحياة .

واستقبل ماريوس فى العاصمة المبتهجة كأنه « كمليوس ثان » صد عنها غارة كلتية ، «ورميولوس» آخر أنشأ رومة من جديد » ووهبته جزءاً من الغنيمة التى جاء بها مكافأة له على عمله ؛ فأصبح بذلك من أثرياء المدينة يمتلك من الضياع ما « يكفى لأن يكون وحده مملكة » . وفى عام ١٠٠ ق . م اختير قنصلا للمرة السادسة . وكان زميله فى القنصلية لوسيوس ستورنينس Lucius Saturninus وكان رجلا متطرفاً حاد الطبع عقد النية على أن يبلغ الهدف الذى كان يسعى له إبنا جراكس بالتشريع إن استطاع وبالقوة إن لم يستطع . وكسب ود ماريوس بأن عرض على الجمعية قانوناً يقضى بتوزيع بعض أراضى المستعمرات على الجنود

المضرسين الذين اشتركوا فى المعارك الحديثة ؛ ولما أنقص ثمن القمح الذى توزعه الدولة على العامة من ستة أسات وثلث آس (أى ما يعادل ٣٩ر من الريال الأمريكى) إلى خمسة أسدامس آس (أى نحو ٠٥ر من الريال الأمريكى) لكل موديوس لم يعارض ماريوس فى هذا الإجراء . وأراد مجلس الشيوخ أن يحمى خزانة الدولة ، ويحمى نفسه بتحريض أحد التربيونين على أن يمنع الاقتراع على هذين المشروعين . ولكن ستورنينس لم يعبأ بهذا الاعتراض وتقدم بهما إلى الجمعية : واحتدم النزاع بين الطرفين ، ولجأ كلاهما إلى العنف . ولما أن قتل أنصار ستورنينس كيوس ممبوس Caius Memmius ، وكان من أكبر الأشراف مقاماً ، لجأ مجلس الشيوخ إلى آخر سهم فى كنانته واستخدم حقه فى حماية الشعب senatus consultum de re publica defendeuda وأمر مريوس بوصف كونه قنصلا أن يخمد الفتنة ، وكان على ماريوس أن يختار بين أمرين ليس فيهما حظ لمختار ، وكان هذا الاختيار أسوأ ما مر عليه طول حياته ، فقد كان شديداً على نفسه أن يختم جهاده الطويل لخدمة العامة من أهل رومة هذه الخاتمة التعسة فيهاجم زعماءهم وأصدقاءه السابقين ، على أنه هو أيضاً كان لا يرضى عن استخدام العنف ويعتقد أن الثورة تنتج من الشرور أكثر مما تستطيع علاجه ، وأخيراً سار على رأس قوة لمهاجمة الثوار وسمح بأن يقتل ستورنينس رجماً بالحجارة ، ثم طلق السياسة وعاش فى عزلة عيشة نكدة يائسة ، يحتقره العامة الذين دافع عنهم وأخذ بناصرهم ، والأشراف الذين أنجاهم من البلاء .

الفصل الخامس

ثورة إيطاليا

كانت الثورة فى ذلك الوقت تتطور إلى حرب أهلية داخلية ؛ ولما استعان مجلس الشيوخ أحلاف رومة من ملوك الشرق لصد غارات السمبريين رد عليه نقوميدس ملك بثينيا بقوله إن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح فى مملكته قد بيعوا فى سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة . ورأى مجلس الشيوخ أن الجيش فى ذلك الوقت أفضل من الرقيق فأصدر قراراً يقضى بتحرير كل من أصبحوا أرقاء لعجزهم عن أداء الضرائب ؛ فلما سمع الأرقاء بهذا القرار اجتمع مئات منهم فى صقلية ، وكان كثيرون منهم من يونان بلاد الشرق الهلنستية ، وتركوا سادتهم واحتشدوا عند باب قصر البريتور وطالبوا بحريتهم ، فعارض أسيادهم فى ذلك الطلب واحتجوا عليه ، واستمع البريتور إليهم وأجل تنفيذ قرار التحرير ؛ ونظم الأرقاء أنفسهم بقيادة دعى دينى يسمى سلفيوس Salvius وهاجموا مدينـــة مورجنتيا Morgantia . واستطاع مواطنو المدينة أن يضمنوا وفاء معظم عبيدهم حين وعدوهم بأن يحرروهم إذا صدوا هجمات المغيرين ؛ فلما صدوها أخلف سادتهم وعدهم ولم يحرروهم ، فانضم معظمهم إلى الثائرين . وثار حوالى ذلك الوقت نفسه (١٠٣) نحو ستة آلاف من الأرقاء فى طرف الجزيرة الغربى بقيادة أثنيون Athenion ، وهو رجل متعلم ذو عزيمة ماضـــية ؛ وهزمت هذه القوة تباعاً عدداً من الجيوش التى سيرها البريتور لإخماد ثورتها ، ثم تحركت نحو الشرق وانضمت إلى الثوار الذين كانوا تحت قيادة سلفيوس . وتغلبت جموعهم على جيش بعثت به رومة من إيطاليـــا نفسها ، ولكن سلفيوس مات فى ساعة النصر ، ثم عبرت جيوش رومانيـــة أخرى مضيق صقلية

بقيادة القنصل مانيوس أكوليوس (١٠١) ؛ فبارز أثليون هذا القنصل وقتله فى المبارزة وأصبح الأرقاء بلا قائد ، فهزموا وقتل آلاف منهم فى الميدان ، وأعيد آلاف آخرون إلى سادتهم ، ونقل مئات منهم على ظهور السفن إلى رومة ليقاتلوا الوحوش فى الألعاب التى أقيمت احتفالا بانتصار أكوليوس ، ولكن الأرقاء لم يقاتلوا الوحوش بل أعمد كل منهم خنجره فى قلب زميله وماتوا عن آخرهم .

وبعد بضع سنين من هذه الحرب — حرب الأرقاء الثانية — امتشقت إيطاليا كلها الحسام . وسبب ذلك أن رومة — وهى أمة صغيرة بين كومى وكيرى Caere ، وبين جبال الأپنين والبحر — قد ظلت نحو قرنين من الزمان تحكم سائر إيطاليا كما تحكم الشعوب المغلوبة : وبلغ من أمرها أن مدناً عريبة منها مثل تيبور Tibur وپرانستى Praeneste لم يكن لها من يمثلها فى الحكومة التى تصرف أمورها ، بل كان مجلس الشيوخ والجمعيات والقناصل يصدرون المراسيم والقوانين إلى الهيئات الإيطالية كأنها ولايات أجنبية مغلوبة على أمرها : وكانت موارد هؤلاء « الأحلاف » من مال ورجال تستنزف فى الحروب التى لم يكن لها هدف إلا ملء خزائن عدد قليل من الأسر فى رومة ، ولم تنل الولايات التى ظلت موالية لها فى صراعها المرير مع هنيبال على هذا الولاء جزاء يستحق الذكر ، أما التى قدمت إلى هنيبال فى هذا الصراع شيئاً من المعونة أيا كان نوعها فقد كان عقابها أن أخضعت إلى رومة خضوعاً أذلها إذلالا جعل كثيراً من أهلها ينضمون إلى الأرقاء فى ثورتهم عليها . وكان عدد قليل من أثرياء المدن قد منحوا حق مواطنى رومة ، وكانت رومة نفسها تستخدم سلطانها فى كل مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء ؛ وفى عام ١٢٦ حرمت الجمعية على سكان المدن الإيطالية أن يهاجروا إلى رومة ، وفى عام ٩٥ أخرجت هـــذه العاصمة الغنية كل من لم يكن من أهلها مواطناً رومانياً بل كان مواطناً إيطالياً فحسب

وحاول أحد الأشراف أن يصلح هذه الحال فكان جزاؤه على هذه

المحاولة الإعدام . كان م . لڤيوس دروسس M. Livius Drusus ابن التربيون الذى كان ينافس تيبويوس جراكس ؛ ولما كان متهناه قد أصبح والد زوجة أغسطس ، فإن الأسرة ربطت مصيرها بمبادئ الثورة ، وجرياً وراء هدفها هذا عرض لڤيوس دروسس ، بعد أن اختير تربيوناً فى عام ٩١ ، ثلاثة إجراءات وهى (١) أن يوزع مقدار آخر من أراضى الدولة على الفقراء (٢) أن ترد إلى مجلس الشيوخ حقوقه القضائية التى كانت مقصورة عليه ، مشترطاً أن يضم إليه فى الوقت نفسه ثلثمائة من رجال الأعمال (٣) أن يمنح جميع الأحرار فى إيطاليا حقوق المواطنين الرومانيين وأجازت الجمعية الاقتراح الأول وهى مغتبطة ، وأجازت الثانى دون أن تبدى اغتباطاً أو استياء ؛ ولكن مجلس الشيوخ رفض الاقتراحين كليهما وأعلن أنه لا يرتبط بشىء منهما ، أما الاقتراح الثالث فلم يعرض للاقتراع لأن مغتالا مجهولا طعن دروسس طعنة قاتلة فى منزله .

وبعثت هذه الاقتراحات الأمل فى نفوس الولايات الإيطالية وأيقنت مما حل بها أن مجلس الشيوخ والجمعية لن يقبلا بطريقة سلمية أن يشتركا غيرهما معهما فيما يعود عليهما من المزايا بفضل هذه الاقتراحات . فأخذت هذه الولايات تستعد للثورة . وتألفت منها جمهورية اتحادية ، عاصمتها كنفرنيوم Confirnium ، وعهدت بالحكم إلى مجلس الشيوخ مؤلف من خمسماية عضو يختارون من جميع القبائل الإيطالية عدا التسكان والأمبريان الذين رفضوا الانضمام إلى هذا الاتحاد . فلم يسع رومة إلا أن تعان الحرب من فورها على المنشقين . واشتركت أحزاب العاصمة كلها فى الحرب التى كانت فى رأيهم دفاعاً عن وحدة إيطاليا ؛ وملأ الخوف قلوب الرومانيين على بكرة أبيهم من انتقام للدول المتمردة إذا انتصرت فى هذه « الحرب الاجتماعية »(*) القائمة بين الإخوة بعضهم وبعض ، وخرج ماريوس من عزلته ،

(*) هذه هى الترجمة الخاطئة للعبارة اللاتينية Bellum Sociale — أى حرب الأحلاف (socii) ضد رومة . وهى ترجمة أكسبتها الأيام حرمة لا تستحقها .

وتولى القيادة ، وانتصر فى معركة بعد معركة مع أن جميع القواد الرومانيين — ما عدا صلا — قد منوا بالهزيمة ، وقتل فى ثلاث سنين حوالى ثلثمائة ألف نفس ، وخربت إيطاليا الوسطى أشد تخريب . ولما أوشكت إترووريا وأمبريا أن تنضما إلى الثوار استرضتهما رومة بأن منحت أهلهما جميع حقوق المواطنين الرومانيين ، وفى عام ٩٠ منحت حقوق الرومان السياسية لجميع الأحرار والمحررين الإيطاليين الذين يقسمون يمين الولاء لرومة . وكان من أثر هذه الامتيازات القليلة أن ضعفت قوة الأحلاف المناوئين لرومة ، فألقت المدن واحدة بعد الأخرى سلاحها ، ولم يحل عام ٨٩ حتى كانت هذه الحرب الوحشية الضروس قد وضعت أوزارها ، واختتمت بسلام نكد لا خير فيه للطرفين . ذلك أن الرومان قد قضوا على ما منحوه للولايات الإيطالية من حقوق سياسية ، بأن جمعوا المواطنين الجدد فى عشر قبائل جديدة لا تقترع إلا بعد أن تفرغ الخمس والثلاثون قبيلة التى كانت موجودة قبل من الاقتراع ، وبذلك لم يكن لاقتراعها هذا قيمة فى معظم الأحيان ، يضاف إلى هذا أنه لم يكن فى وسع المواطنين الجدد أن يحضروا الجمعيات فى رومة إلا قلة ضئيلة منهم . لذلك صبرت الجماعات التى غرر بها والتى أضلتها الحرب وخربت بلادها على مضض ، فلما أن مضت على ذلك الوقت أربعون سنة فتحت أبوابها لقيصر يعرض عليها حقوق المواطنين فى جمهورية لا وجود لها .

الفصل السادس

صلا السعيد

ولم يلبث النزاع بين الرومانيين والإيطاليين أن قام من جديد بعد بضع سنين قلائل ساد فيها للسلام ، وكل ما فى الأمر أن تبدل اسم هذا النزاع من نزاع « اجتماعى » إلى نزاع « أهلى » وأن تبدل ميدانه من المدن الإيطالية إلى رومة نفسها . وتفصيل ذلك أن لوسيوس كرنليوس صلا اختير ليتولى فى عام ٨٨ ق . م منصب القنصلية . وتولى قيادة الجيش الذى كان يعبأ لقتال مثرداتس Mithridates حاكم پنتس Pontus ، ولكن التربيون سلپيسيوس روفس Sulpicius Rufus لم يكن يرضى أن يتولى رجل محافظ مثل صلا قيادة هذه القوة العظيمة ، وأقنع الجمعية بأن يتولى القيادة ماريوس ، وكان وقتئذ رجلا بديناً فى التاسعة والستين من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من يده فرصة القيادة التى طال انتظارها ، وأن تفلت منه لما لاح له أنه نزوة من نزوات جمعية خاضعة لتأثير زعيم شعبى مهرج ، وللرشا التى لم يكن يشك فى أنها قد تلقتها من التجار الذين يحبون ماريوس . فلم يكن منه إلا أن فر إلى نولا Nola وكسب ولاء الجيش وزحف به على رومة .

وكان صلا رجلا فذاً فى منشئه ، وأخلاقه ، ومصيره . فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف ، كما أصبح ابنا جراكس ودروسس Drusus وقيصر وهم من الأشراف زعماء الطبقات الفقيرة ، وثأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً ؛ وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه فى قضاء شهواته ، فأطلق لها العنان ، ولم يتقيد فيها بعرف ، ولم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير . وكان دميم الخلق — له عينان زرقاوان براقتان فى وجه أبيض

تلطخه بقع شديدة الحمرة — كأنه ثوت منثور عليه دقيق[١٧] » ، لكن هذه الملامح كانت تخفى وراءها تعليماً راقياً ، فقد كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية ، وكان مولعاً بجمع روائع الفن دقيقاً فى اختيارها (مستعيناً على ذلك فى العادة بالوسائل العسكرية) . وأمر أن تحمل له من أثينة مؤلفات أرسطوطاليس ، واختص بها نفسه لتكون جزءاً من أثمن غنائه ، ووجد خلال أيام الحرب والثورة من الوقت ما استطاع فيه أن يكتب مذكراته ليضل بها الناس من بعده . وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً ، وصديقاً كريماً ، يدمن الخمر ، ويشتهى النساء ، ويولع بالحرب ، ويطرب للغناء ؛ ويقول عنه سلست Sallust إنه «كان يعيش عيشة البذخ ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته ، إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان فى وسعه أن يجعل سلوكه مع زجته أشرف مما كان[١٨] » . وسلك الرجل طريقه إلى المجد سلوكاً سريعاً ، وخاصة فى الجيش وسيلته الموفقة إلى أغراضه . وكان يعامل جنوده معاملة الزميل لزميله ، يشترك معهم فى أعمالهم وفى سيرهم ، ويتعرض لما يتعرضون له من الأخطار ؛ « وكان همه الوحيد ألا يسمح لإنسان ما أنه يفوقه فى حكمته وشجاعته[١٩] » . ولم يكن يؤمن بآلهة الرومان ، ولكنه يؤمن بالخرافات . وفيما عدا هذا كان الرجل من أكثر الرومان واقعية كما كان أشدهم قسوة ، خياله ومشاعره خاضعة لسلطان عقله . ومما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب ، وأن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد[٢٠] . قضى نصف أيامه فى ميادين القتال ، وقضى العشر السنين الأخيرة منها فى الحروب الأهلية ، ولكنه رغم هذا ظل محتفظاً بفكاهته ومرحه إلى آخر أيام حياته ، يوشى قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الفكاهية ، ويملأ رومة ضحكا ، خلق لنفسه مائة ألف عدو ومات فى فراشه .

وكان يلوح أن هذا الرجل الذى يتألف من مزيج كيميائى من الفضائل والرذائل هو الذى تحتاجه البلاد لقمع الثورة فى الداخل والقضاء على مثرداتس فى الخارج ؛ وكان من السهل على رجاله المدربين البالغ عددهم ٣٥٫٠٠٠ أن

يبددوا شمل الأشقات غير المتجانسين الذين جمعهم ماريوس ارتجالا فى رومة . فلما أيقن ماريوس بحرج موقفه فر إلى أفريقية ، وقُتل سلپسيوس إذ غدر به خادمه . وأمر صلا أن يدق رأس التربيون فى منبر الخطابة الذى كان منذ قليل تتجاوب فيه أصداء خطبه البليغة ؛ وحرر العبد مكافأة له على خدمته ، ثم أمر بقتله جزاء له على غدره . وبينا كان جنوده يسيطرون على السوق العامة أصدر قراراً بألا يعرض أى أمر على الجمعية إلا بإذن مجلس الشيوخ ، وأن يكون نظام الاقتراحات هو النظام المقرر فى « دستور سرڤيوس » ، وهو الذى يجعل الأولوية والميزة للطبقات العليا ؛ ثم عمل على أن يكون هو القنصل الأول وسمح بأن يختار نيوس أوكتاڤيوس **Cnaeus Octavius** وكرنليوس سننا **Cornelius Cinna** قنصلين (٨٧) ، ثم سار للقاء مثردات المظيم .

ولكنه لم يكد يغادر إيطاليا حتى قام النزاع من جديد بين طبقة العامة وطبقتى الأشراف والفرسان الممتازين ، ونشب القتال فى السوق العامة بين أنصار أكتاڤيوس المحافظين وأتباع سنا المتطرفين ، وقتل من الفريقين فى يوم واحد عشر آلاف رجل ، وانتصر أكتاڤيوس فى آخر الأمر وفر سنا لينظم الثورة فى المدن المجاورة ، ثم أبحر إلى إيطاليا بعد أن قضى الشتاء مختفياً ، وأعلن تحرير الرقيق ، وسار على رأس قوة مؤلفة من ستة آلاف رجـــل لقتال أكتاڤيوس فى رومة . وانتصر الثوار وذبحوا آلافاً مؤلفة من أعدائهم ، وزينوا منابر الخطابة برؤوس الشيوخ المقتولين ، وساروا فى الشوارع صفوفاً صفوفاً ورؤوس الأشراف فوق رماحهم ، وأضحت هذه سنة جرى عليها الثوار فيما بعد . واستقبل أكتاڤيوس الموت فى هدوء واطمئنان وهو جالس على كرسى التربيون مرتدياً ملابسه الرسمية . ودامت المذبحة خمسة أيام بلياليها ، كما دام الإرهاب عاماً كاملا ، واستدعت محكمة الثورة الأشراف للمثول أمامها ، وقضت بإدانتهم إذا كانوا قد قاوموا ماريوس وصادرت أملاكهم . وكانت إيماءة ماريوس تكفى لأن تطيح برأس أى إنسان

مهما كانت منزلته ، وكان يقتل فى أغلب الأحيان لساعته قبل أن يبرح مكانه . وقتل بهذه الطريقة أصدقاء صلا جميعهم ؛ وصودرت أملاكه ، وعزل من قيادة الجيش ، وأعلن أنه عـــدو الشعب . ولم يسمح بدفن الموتى بل تركت جثثهم فى الشوارع تلتهمها الكلاب والطيور الجارحة . وانطلق الأرقاء المحررون فى البلدة ينهبون ، ويفسقون ، ويقتلون الناس بلا تمييز بينهم ، وظلوا على هذه الحال حتى جمع سنا أربعة آلاف منهم ، وأحاطهم بجنود من الغاليين وأمر بقتلهم عن آخرهم(٢١) .

ثم اختير سنا قنصلا مرة ثانية ، كما اختير ماريوس للمرة السادسة ، ولكن ماريوس توفى فى الشهر الأول بعد توليه منصبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره . منهوك القوى من فرط ما لاقى من الشدائد وضروب العنف ، وانتخب ڤلريوس فلاكوس Valerius Flaccus قنصلا بدلا منه ، وأصدر مرسوماً بإلغاء ثلاثة أرباع الديون جميعها ، ثم زحف شرقاً على رأس جيش مؤلف من اثنى عشر ألفاً لخلع صلا من القيادة ، وبقى سنا فى رومة يتولى فيها الحكم بمفرده ، فاستبدل بالجمهورية دكتاتورية ، وعين جميع موظفى المناصب الكبرى ، وعمل على أن ينتخب قنصلا أربع سنين متتالية .

ولما غادر فلاكوس إيطاليا كان صلا يحاصر أثينة لأن هذه المدينة انضمت إلى مثريداتس فى ثورته على رومة . ولما حبس عنه مجلس الشيوخ المال اللازم لمرتبات جنوده عمد إلى الهياكل والكنوز فى أولمپيا وإپدورس ودلفى فنهبها ليمون بها جنده وينفق منها على حروبه . وفى شهر مارس من عام ٨٦ اقتحم الجند أحد الأبواب فى أسوار أثينة ، وتدفقوا منه إلى داخل المدينة ، وانتقموا لما عانوه من طول الحصار ومشاقه بأن عاثوا فى المدينة فساداً ، يقتلون وينهبون . ويقول أفلوطرخس « إن عدد القتلى كان يخطئه الحصر . . . وقد جرت الدماء أنهاراً فى شوارع المدينة ، وخرجت منها إلى الضواحى النائية(٢٢) » . وأخيراً أمر صلا

بوقف المذبحة ، وقال إنه « يصفح عن الأحياء إكراماً للموتى » . ثم قاد جنوده نحو الشمال بعد أن استراحوا من متاعب القتال ، وهزم قوة كبيرة عند قيرونية Chaeronea ، وأركومينس Orchomenus ، وطارد فلولها إلى آسية مجتازاً مضيق الهلسبنت (الدردنيل) ، وأخذ يعد العدة للقاء القسم الأكبر من جيش ملك پنت(*) ، ولكن فلاكوس كان قد وصل فى هذه الأثناء إلى آسية على رأس جيشه ، وأبلغ صلا مرة أخرى أن عليه أن يتخلى عن القيادة ، ولكنه استطاع أن يقنع فلاكوس بأن يتركه حتى يتم حملته ، وكانت نتيجة هذا أن قتل فلاكوس بيد ياوره فمبريا Fimbria ، ثم نصب هذا الضابط نفسه قائداً للجيوش الرومانية كلها ، وتقدم شمالا لملاقاة صلا . فما كان من صلا أمام هذا الخرق إلا أن عقد مع مثرداتس صلحاً (٨٥) ينزل هذا الملك بمقتضاه عن كل ما ظفر به من الفتوح فى تلك الحرب ، ويسلم إلى رومة ستين سفينة حربية ، ويؤدى لها غرامة مقدارها ألفى تالنت . ثم اتجه صلا بعدئذ نحو الجنوب والتقى بفمبريا فى ليديا ، فانضمت جنود فمبريا إلى صلا ، وانتحر قائدها وأصبح صلا سيد بلاد الشرق اليونانية ، ففرض عليها غرامة حربية مقدارها عشرون ألف تالنت ، وشرع يجبى الضرائب من مدائن أيونيا الثائرة . ثم سارع مع جيشه بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، وزحف على پترى Patrae ووصل إلى براندیزيوم فى عام ٨٣ . وحاول سنا أن يقف زحفه ولكن جنوده قتلوه .

وحمل صلا إلى خزائن رومة خمسة عشر ألف رطل من الذهب ، ومائة وخمسة عشر رطلا من الفضة ، مضافة إلى ما حمله من النقود ومن روائع الفن التى خص بها نفسه . ولكن الزعماء الديمقراطيين ، وكانوا لا يزالون أصحاب الأمر والنهى فى رومة ، ظلوا يتهمونه بأنه عدو الشعب ، ووصفوا المعاهدة التى عقدها مع مثرداتس بأنها مذلة قومية ، واضطر صلا على الرغم منه أن يزحف بجنوده

(*) يقصد ملك البلاد الواقعة على شاطىء البحر الأسود . (المترجم)

الأربعين ألفاً على رومة ، وواصل هذا الزحف حتى بلغ أبوابها ، وخرج كثيرون من الأشراف لينضموا إليه ، وجاء إليه أحدهم وهو نيوس بمبي بفيلق يتألف كله من موالى أبيه وأصدقائه ، وسار ابن ماريوس على رأس جيش للاقاة صلا ، فهزم وفر إلى برانست ، بعد أن أرسل إلى البريتور الشعبي يأمره بأن يقتل كل من لايزال فى العاصمة من زعماء الأشراف ، وصدع الرجل بالأمر فجمع لمن الشيوخ وقتل جميع هؤلاء الزعماء وهم جلوس فى مقاعدهم أو فى أثناء فرارهم . ثم جلت القوات الديمقراطية عن رومة ودخلها صلا دون أن يلقى مقاومة ، ولكن جيشاً من السمنيين قوامه مائة ألف مقاتل زحف من الجنوب وانضم إلى فلول القوات الدمقراطية ليثأر للولايات الإيطالية ويغسل عار الهزيمة التى منيت بها فى « الحرب الاجتماعية » ، وخرج صلا لملاقاتهم وانتصر عليهم عند باب كلين Colline بجيشه البالغ خمسين ألفاً فى معركة تعد من أشد معارك التاريخ القديم هولا ، جرت فيها الدماء أنهاراً ، وبعد أن تم له النصر أمر بقتل ثمانية آلاف من الأسرى رمياً بالسهام بحجة أنهم وهم أحياء يسببون له من المتاعب أكثر مما يسببون له منها وهم أموات ، ورفعت رؤوس من أسر من الزعماء على أسنة الرماخ أمام أسوار برانست ، حيث كان آخر جيوش الدمقراطيين محصوراً ، ثم سقطت برانست ، وانتحر ماريوس الصغير ، وعرض رأسه مسمراً فى السوق العامة — وهو عمل كانت السوابق الكثيرة قد جعلته فى نظر الناس أمراً مألوفاً مشروعاً .

ولم يجد صلا بعدئذ صعوبة فى إقناع مجلس الشيوخ بأن ينصبه دكتاتوراً ، فلما تم له ذلك أصدر من فوره حكماً بإعدام أربعين من الشيوخ ، وألفين وستمائة من رجال الأعمال ، وكان هؤلاء الرجال ممن أعانوا ماريوس عليه وابتاعوا أملاك الشيوخ الذين قتلوا فى أثناء حكم المتطرفين ، وعرض صلا مكافآت لمن يبلغونه عن أسماء هؤلاء الرجال ، كما عرض مكافآت قدرها اثنا عشر ألف دينار (٧٢٤٠ ريال أمريكى) على من يأتونه بالمحكوم عليهم أمواتاً كانوا أو أحياء ، وزينت السوق

العامة بروءوس القتلى وبقوائم بأسماء المحكوم عليهم تتجدد من آن إلى آن ، ولم يكن يسع المواطنين إلا الاطلاع عليها بعد الفينة والفينة ليعرفوا مصيرهم أهو الموت أم الحياة . وانتشرت أهوال المذابح والنفى ومصادرة الأملاك من رومة إلى الولايات ، وكان ضحاياها هم الثوار الإيطاليين وأتباع ماريوس أينما وجدوا ، وكان عدد من قتلوا فى هـذا الإرهاب الأرستقراطى حوالى أربعة آلاف وسبعمائة نفس . ويصف أفلوطرخس هذا الإرهاب بقوله : « وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم ، والأبناء فى حجور أمهاتهم » . وقد حكم على كثيرين ممن وقفوا على الحياد أو كانوا من المحافظين ، فمنهم من قتل ومنهم من نفى ، وقيل إن صلا قد فعل بهم ذلك لحاجته إلى أموالهم ، ينفقها على جنوده أو فى ملذاته . أو يكافء بها أصدقاءه . وكانت الأملاك المصادرة تباع لمن يعرض فيها أغلى الأثمان ، أو للمقربين ذوى الحظوة عند صلا ، وأضحت هذه الأملاك أساساً لثراء كثيرين من الناس أمثال كراسس Crassus وكتلين Catiline ، واستخدم صلا حقوقه الدكتاتورية فى إصدار طائفة من المراسيم — تعرف بالقوانين الكرنيلية نسبة إلى العشيرة التى ينتمى إليها — كان يرجو أن ينشىء بها دستوراً أرستقراطيا يظل دستور رومة طوال حياتها . وأراد أن يسد ما طرأ على عدد مواطنى رومة من النقص بسبب الموت ، فأعطى حق المواطنين لكثير من الأسپان وللكلت ولبعض الأرقاء السابقين ، فأضعف من سلطان الجمعيات بحشد هؤلاء الأعضاء الجدد فيها وهم المدينون له بعضويتها ، وبتجديد القانون القديم القاضى بألا يعرض قانون على الجمعية إلا بموافقة مجلس الشيوخ . ثم عمل على وقف نزوح الإيطاليين إلى رومة فوقف توزيع الغلال من قبل الدولة على الأهلين ثم قلل ازدحام السكان فى المدينة بتوزيع الأراضى الزراعية على اثنى عشر ألفاً من جنوده الأقدمين ، وأراد أن يمنع القنصل الذى يختار لمنصبه جملة مرات متتالية أن يكون دكتاتوراً فعليا ، فأصر على تنفيذ السنة القديمة التى كانت تحرم على أى موظف أن يشغل منصبه مرة

ثانية إلا بعد مضى عشر سنوات على خروجه منه فى المرة السابقة : وأنقص مكانة التربيون بتقييد حقه فى الرفض وحرمان التربيون السابق من حق التعيين فى أى منصب من المناصب الكبرى ، واسترد من رجال الأعمال حقهم الذى كان مقصوراً عليهم فى أن يكونوا محلفين فى المحاكم العليا ، ورد هذا الحق إلى مجلس الشيوخ ، واستبدل بنظام الالتزام فى الضرائب نظام جبايتها من الولايات نفسها وإرسالها إلى خزانة الدولة مباشرة . ثم أعاد تنظيم المحاكم ، وزاد فى عددها ضماناً لسرعة البت فى القضايا ، وحدد اختصاصها ومدى سلطتها تحديداً دقيقاً ، ورد إلى مجلس الشيوخ كل ما كان له قبل ثورة ابنى جراكس من مزايا تشريعية وقضائية وتنفيذية واجتماعية ، وحق أعضائه فى لبس زى خاص . وقد فعل صلا كل هذا ليقينه أن الحكم الملكى أو الأرستقراطى هما اللذان يصلحان دون غيرهما من النظم لحكم الإمبراطوريات حكماً حازماً حكيما ؛ ثم عمل على زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ إلى الحد المقرر ، فأجاز للجمعية القبلية أن ترقى إلى عضويته ثلثمائة من طبقة « الفرسان » ، وأراد أن يبرهن على ثقته بعدالة هذا الإجراء الشامل واطمئنانه له فسرح جيوشه وقرر ألا يسمح ببقاء جيوش فى إيطاليا كلها . وبعد أن ظل حاكماً بأمره عامين تخلى عن سلطته بأجمعها ، وأعاد الحكم القنصلى ، واعتزل الحياة العامة (عام ٨٠ ق . م) .

وكان فى حياته الجديدة آمناً على نفسه ، لأنه قد قتل قبل كل من يستطيعون الائتمار به . ولذلك سرح حرسه وقواصيه ، وكان يسير فى السوق العامة لا يخشى أذى ، وعرض أن يفسر أعماله الوطنية لكل مواطن يطلب إليه أن يفسرها ؛ ثم ذهب ليقضى أيامه الأخيرة فى قصره الصغير فى كومى ، بعد أن مل الحرب والسلطان والمجد ، ولعله قد مل أيضاً صحبة الناس ، فأحاط نفسه بالمغنيين والمغنيات والراقصين والراقصات ، والممثلين والممثلات ، وأخذ يكتب شروحه Commentarii ويتسلى بصيد الحيوان والسمك ، والانهماك فى الطعام والشراب ؛ وأطاق عليه الناس

من ذلك الوقت اسم « صلا السعيد » لأنه انتصر فى كل معركة ، واستمتع بكل لذة ، واستحوذ على كل سلطة ، وعاش عيشة لا يساوره فيها خوف ولا ندم ، وتزوج خمس نساء طلق منهن أربعاً واستكمل متعته بالمحاظى ، ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج فى القولون بلغ من شدته « أن اللحم النتن استحال قملا ، بلغ من الكثرة حداً كان لا بد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله » ولكن القمل أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه ، وحماماته . وآنيته فحسب ، بل تلوث به أيضاً طعامه نفسه »(٢٣) على حد قول أفلوطرخس « ومات صلا على أثر تريف فى الأمعاء ، ولم يكد يقضى فى عزلته عاماً واحداً (٧٨ ق م) ولم يفته أن يملى قبريته قبل وفاته : « لم يخدمنى قط صديق ، ولم يسئ إلى أبداً عدو ، إلا جزيت الأول على خدمته والثانى على إساءته الجزاء الأوفى » .